لم يقتلوا لأنهم يقينا وعلى هذا القول فتكون الهاء في قتلوه عائدة على الظن والمعنى ما قتلوا ذلك الظن
يقينا ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ما وقع لهم من الشبه في قتله فهو كقول العرب قتله علما وقتله يقينا
يعني علمه علما تاما وأصله أن القتل للشيء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة ومعنى الآية على هذا لم يحط
علمهم بقتل عيسى علما تاما كاملا إنما كان ظنا منهم أنهم قتلوه ولم يكن لهم ذلك حقيقة وقيل إن
الهاء في قتلوه عائدة على عيسى والمعنى وما قتلوا المسيح يقينا كما ادعوا أنهم قتلوه وقيل إن قوله
يقينا يرجع إلى ما بعده تقديره وما قتلوه **بل رفعه الله إليه** يقينا يعني والمعنى أنهم لم يقتلوا
عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه إليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء
وقد تقدم كيف كان رفعه في سورة آل عمران لما فيه كفاية وقوله تعالى **وكان الله عزيزا** يعني في اقتداره
على من يشاء من عباده **حكيما** يعني في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود وقيل عزيزا يعني
منيعا منتقما من اليهود فسلط عليهم بطيطوس بن سبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة
عظيمة حكيما حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوة الكاذبة قوله تعالى **وإن من**
أهل الكتاب يعني وما من أحد من أهل الكتاب **إلا ليؤمنن به** يعني بعيسى عليه السلام وأنه عبد
الله ورسوله وروحه وكلمته هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقال عكرمة في قوله ليؤمنن به
يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا القول لا وجه له لأنه لم يجر للنبي صلى الله عليه وسلم ذكر قبل
هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه وقول الأكثرين أولى لأنه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود
الضمير إليه أولى **قبل موته** اختلف المفسرون في هذا الضمير إلى من يرجع فقال ابن عباس وأكثر
المفسرين إن الضمير يرجع إلى الكتابي والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت ذلك
الكتابي ولكنه إذا وقع في البأس حين لا ينفعه إيمانه احترق أو غرق أو تردى من شاهق أو سقط عليه
جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل له أرأيت إن خر من فوق بيته قال يتكلم به في الهوي فقيل له أرأيت
إن ضربت عنقه قال يتلجلج بها لسانه وقال شهر بن حوشب إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت
الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله أتاك موسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه
عبد الله ورسوله ويقول للنصراني أتاك عيسى فزعمت أنه ابن الله فيقول آمنت أنه عبد الله فأهل
الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير
يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضا والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن
بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن
بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام قال عطاء إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهودي ولا نصراني
ولا أحد يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وأنه عبد الله وكلمته ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا
فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد في رواية وحتى تكون
السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا
ليؤمنن به قبل موته الآية وفي رواية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لينزلن ابن مريم حكما
عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن
الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد أخرجاه في الصحيحين وفي هذا الحديث
دليل على أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه
لا ينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكما من حكام هذه الأمة وإماما من أئمتهم
لقوله صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب يعني ليكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه
وكذلك قتل الخنزير قوله ويضع الجزية يعني لا يقبلها ممن بذلها من اليهود والنصارى ولا يقبل من

الا الاسلام

٢٥٨

إلا الإسلام أو القتل وعلى هذا فيرد عليه أن هذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم فإن الكتابي إذا بذل الجزية
وجب قبولها منه ولا يجوز قتله ولا إجباره على الإسلام والجواب أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة
بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بنسخه وليس الناسخ
هو عيسى عليه السلام بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبين للنسخ وأن
عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت
هو شرع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم قال الزجاج هذا القول بعيد يعني قول من قال إن
إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان فإن العموم قوله تعالى وإن من أهل الكتاب إلا
ليؤمنن به قال والذين يبقون يومئذ يعني عند نزوله شرذمة قليلون منهم وأجاب أصحاب هذا القول بأن معنى
الذين يقولون إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان لا ينكرون هذا على العموم ولكن المراد
بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به ويكون معنى الآية وما من أحد من
أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله من السماء وفي المعنى هذا القول وقال عكرمة في
معنى الآية وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابي فلا يموت يهودي
ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك عند الحشرجة حتى لا ينفعه إيمانه وقوله تعالى
ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا يعني يكون عيسى عليه السلام شاهدا على اليهود أنهم
كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه ربا وأشركوا به وشهيد على تصديق من صدقه منهم
وآمن به قال قتادة معناه أنه يكون شهيدا يوم القيامة أنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية
قوله عز وجل **فبظلم من الذين هادوا** يعني فبسبب ظلم منهم **حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم**
يعني حرمنا عليهم الطيبات التي كانت حلالا لهم بظلم عظيم ارتكبوه وذلك الظلم هو ما ذكره من
نقضهم الميثاق وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة مثل قولهم اجعل لنا إلها كما
لهم آلهة وكقولهم أرنا الله جهرة وكعبادة العجل فبسبب ذلك الأمر حرم الله عليهم طيبات
كانت حلالا لهم وهو ما ذكره في سورة الأنعام في قوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية وقال
المفسرون في معنى الآية حرمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذي أخذ عليهم وكفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء
وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما وصفهم الله به في كتابه طيبات من المآكل وغيرها التي كانت لهم حلالا
عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنهم في كتابه وروي عن قتادة قال عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي
بغوه وحرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم وقال الواحدي وابن الجوزي عن مقاتل قال كان الله حرم
على أهل التوراة أن يأكلوا الربا ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظلما بالباطل وصدوا عن دين الله وعن
الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فحرم الله عليهم عقوبة لهم ما ذكر في قوله وعلى الذين هادوا حرمنا
عليهم كل ذي ظفر الآية قال الواحدي وأما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف ومتى كان وعلى لسان من
حرم عليهم فلم أجد فيه شيئا انتهى مستركنه وقد انتهى الواحدي فيما قال إن هذه الآية في غاية
الإشكال وبيانه أن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه ومن ذكر المفسرين في معنى الظلم المذكور
في الآية ما تقدم ذكره وكلها ذنوب في المستقبل وإن ولكن علم الله وقوع هذه الذنوب منهم
قبل وقوعها حرم عليهم ما حرم من الطيبات التي كانت لهم حلالا عقوبة لهم على ما سبق منهم
ولكن عوقبوا بما تقدم وهو أن الله لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه ولهذا الذي ذكر الإمام فخر الدين في
تفسير هذه الآية ما ذكره المفسرون بل ذكر تفسيرا إجماليا فقال اعلم أن أنواع الذنوب محصورة في نوعين
الظلم للخلق والإعراض عن الدين الحق أما ظلم الخلق فإليه الإشارة بقوله **وبصدهم عن سبيل الله**
كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ثم إنهم مع ذلك في غاية الحرص على طلب المال فتارة يحصلونه
بطريق الربا مع أنهم قد نهوا عنه وتارة يحصلونه بطريق الرشا وهو المراد بقوله **وأكلهم أموال الناس بالباطل**

Copyright © King Saud University